درس في التصوف

للأستاذ زكي نجيب محمود

— مالي أراك يا بنيّ مُنزوِياً عن الدرس نافراً؟

— أخشى، يا أبتاه، أن يثقل على سمعي فيثقل ذلك على نفسك، فما لشبابي الغض وهو في شرخه وعنفوانه ولهذه النظرة اليائسة العابسة، وهي نظرة المدبرين العاجزين؟

— انظر يا بني إلى هذا الفضاء الطليق، وأرسل بصرك في أرجاء الكون الفسيح... أوَ ينقص من عنفوان شبابك يا بنيّ أن تكون هذا السيل الدافق وذلك الطود السامق؟ هل يحد من شبابك يا بني أن تكون هذا البركان الفوار وذلك الخضم العنيف الجبار؟ هل يضيرك يا بني أن تكون هذه الزهرة في رقتها وجمالها وهذا الليث الكاسر في جده وصرامته؟

— ومالي ولهؤلاء يا أبتاه، وأنا إنسان، وهي من الجماد والنبات والحيوان؟

— أنت يا بني كل هؤلاء؛ وهؤلاء كلها أنت... أنت الكون العظيم بكل ما فيه من قوة وفتوة وجلال وجمال...

— ولكني يا أبت أراني فرداً واحداً محدوداً، فما هي ذي حدودي أراها بعيني وأحسها بأصابعي

— ذلك يا بني عند النظر الضيق السقيم، أو إن شئت فقل هذه لغة العيون والأيدي، ثم هي كذلك لغة العقل وحده، وهذه كلها أدوات لم يخلقها الله إلا لتفهم المادة المحدودة بالموازين والمكاييل...

— فإن لم أركَن يا أبت إلى حواسي وعقلي، فإلى أي شيء أركن في فهم الوجود؟

— إلى فطرة عليا يا بني، هي فوق العقل والحواس... اركن يا بني إلى البصيرة لا البصر، فالبصر خادع خادع خادع، فهو تارة لا يريك الوجود، وهو طوراً يريك غير الوجود...

الإيمان» على الطريق تحمى الحمى وتمنع الجار، وكان على الميمنة «أبو جندل» وعلى الميسرة «أبو بصير»؛ وكانت قريشُ الكافرة تزوّدها وتَميرها بكل قافلة تغدو وتروح! — وانقطع طريق الرائح والغادي على مكة إلا من أراد أن يُطَلّ دمُه!

* * *

... وتسامع الناس بما هنالك، ففزعوا وراحوا يداولون الرأي...

ومشى ساعي قريش إلى محمد في المدينة: يا محمد، نسألك بالرحم إلا ما آويتهم، فلا حاجة لنا بهم بعد!

وابتسم محمد، ثم دعا كاتبه ليكتب إلى أبي بصير يدعوه إلى الأمن والدعة...

ومضى الرسول بكتاب محمد يغذ السير إلى ذي المروة ليدفع كتاب محمد إلى أبي بصير يدعوه إلى الأمن والدعة، بعد جهاد العمر ومشقة الحياة؛ فما بلغ الرسولُ حتى كان أبو بصير سطيحاً بين اثنين من صحابته وهو ينشد في صوت يختلج:

الحمدُ لله العليّ الأكبرْ   من ينصر الله فسوف يُنصرْ!

ودفع الرسول إليه الكتاب، فتناوله ونظر فيه نظرة ثم أغفى، وكانت إغفاءةَ الأبد!

وسكنت الريح، وخفت الصوت، وتجاوب بين الصخور الصم صدى هاتف:

«اللهم قد بلّغتَ! اللهم إلى أمنك ودَعتك!»

محمد سعيد العريان

إن الوجود يا ولدي كائن واحد ضخم . وهذه الأشياء منه جذوع وفروع وأطراف ؛ وهذا الوجود الواحد هو أنت ، وأنت هو هذا الوجود ...

— كيف لي أن أفهم هذا القول يا أبت ؟

— إيتني بثمرة من تلك الشجرة ، فسأحدثك بلغة تفهمها

— ها هي ذي

— ماذا ترى في جوفها ؟

— أرى في جوفها بذوراً صغيرة

— اقطع بذرة منها نصفين

— هأنذا ، يا أبت ، قد فعلت

— ماذا ترى فيها ؟

— لا أرى شيئاً

— إن الجوهر الدقيق الذي عجزت عيناك أن تراه قد نبتت منه هذه الشجرة الباسقة . فصدقني إن زعمت لك أن من مثل هذا الجوهر الدقيق جاء الوجود ، وهذا الجوهر الذي لا تراه هو الحق للوجود ، هو الروح الشامل لأطراف الوجود ، هو أنت !

— ... ...

— تعالَ يا بني فضع هذه القطعة من الملح في الماء ، ثم أذبه

— لقد فعلت

— إيت لي بالملح الذي وضعته في الماء

— لست أراه يا أبت ...

— ولكن ذلك الماء كيف مذاقه ؟

— إنه ملح !

— دع الماء جانباً واقترب مني ... إن الملح الذي لا تراه موجود ؛ وهكذا نعجز أن نرى للوجود الحق في دخيلة أجسامنا ، ولكنه موجود ، ومن وجود هذا الجوهر الدقيق جاء الوجود . إنه الحق ، إنه الروح ، إنه أنت

فهذا الرباط الخفي الذي يصلنا بأجزاء الوجود فيجعل منا كائناً واحداً ، قد لا تبصره العيون ، ولا تحسه الأيدي ، ولكنه مع ذلك موجود . وذلك يا بني أول ما أريد أن أعلمك إياه : الوجود كله حقيقة واحدة لا فرق بين إنسان عارف وكون معروف ؛ فإن زعمت أنك شيء والوجود شيء آخر ، فأنت في نعمة العالم «نشاز» بغيض ... والتطبيق العملي على هذه الخطوة الأولى هو أن تحطم من ذهنك كل ما يميز إنساناً من إنسان ، حطم هذه الفواصل التي تباعد بين الغني والفقير ، حطم هذه الفواصل التي تفرق بين القرشي والحبشي ، حطم هذه الفواصل التي تفاضل بين ساعي وآري ... فالإنسانية كلها عند الصوفي رجل واحد

أستغفر الله ، بل حطم هذه الحواجز بين الإنسان وأبناء عمومته وخؤولته من بني الحيوان ، فليس عبثاً أن حرم الله قتل الحيوان آناً من الزمان ، فالحياة كلها عند الصوفي آية واحدة ...

أستغفر الله ، بل حطم هذه الحدود التي تجعل من النبات كائناً ومن الحيوان كائناً ؛ ثم ماذا ؟ ثم امح يا بني ما أقامه العقل المتكلف بين الحي والجامد من سدود ... فإن الوجود بأسره عند الصوفي كائن واحد

* * *

إن أس البلاء يا بني هي هذه الحواس التي تجزئ لنا الوجود قطعاً قطعاً فنحسب الوجود أشتاتاً وما هو بأشتات ...

— وكيف السبيل إلى النجاة يا أبت !

— عليك بثلاثة أمور : أولها الصلاة وثانيها الصلاة وثالثها الصلاة ... عليك بالصلاة يا بني ، فهي فترات أراد لنا الله فيها أن نخلص من جزئيات الوجود ، لنتصل بالواحد القيوم خمس مرات كل يوم ... ألست ترى كيف يحاول المائل بين يدي ربه أن يغلق حواسه فلا يبصر مما حوله شيئاً ولا يسمع شيئاً ؟ ذلك لئلا تعطل حواسُّه الفكرَ عن الوصل للمنشود ... ألا ترى إلى المساجد كيف تزداد روعة على روعة ، ورهبة على رهبة ، حين يخفت ضوؤها ويهمس صوتها ، وحين لا تكون فيها الحركة إلا في بطء وتثاقل ... ؟ ولم ذاك ؟ ليساعد الفكر على التركز في الغرض المقصود ، والحد من عوائق الحواس ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً : فلا نور يبهر البصر ، ولا صوت يملأ السمع ، ولا حركة تثير الأعصاب ... عندئذ يتحقق ما أجراه أفلاطون في محاورة فيدون على لسان سقراط :

« ... يكون الفكر على أتمه حين ينحصر العقل في حدوده

نفسه ، فلا يعكر صفوه أصوات فى السمع ولا رؤية فى البصر ، ثم لا يعكره شعور بألم أو شعور بلذة ... يكون الفكر على أتمه حين تنحصر روابطه بالجسم فى أضيق دائرة ممكنة ، فلا إحساس فى الجسم ، ولا وعى فى الشعور ... عندئذ يطمح الفكر أن يصل إلى الكائن الأسمى »

وتلك هى الفكرة الثانية التى أريد أن أعلمك إياها يا بنى هذا المساء : فارتفع عن صغائر الأشياء ما استطعت إلى الترفع عنها سبيلاً ... إن هذه الأجزاء أشباح زوائل ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ...

* * *

— يا لهـول ما تريد منى يا أبتاه ! إن لحمة الحياة وسداها هى هذه الأجزاء التى تدركها الحواس ، فإن حكمت لى على الحواس بالطمس ، وعلى هذه الأجزاء بالبطلان ، ففيم عساى أن أجاهد فى حياتى ، ولطالما علمتنى أن الحياة جهاد ! ؟

— لقد أخطأت يا ولدى ، فإنما أردت لك أن تهمل أحداث الحياة الصغرى لتتعلق نفسك بمعانيها الكبرى ، وفى هذا فليجاهد المجاهدون ... إنمـا أردت لك أن تهمل القشور لتَمُصَّ من اللباب ... فاهجر ما تغريك به الحواس ، ليتسنى لك أن تقبل على الحياة إقبال الجرىء الباسل الذى لم تعد تهزمه المخاوف الصغرى والأخطار التوافه !

إن النبى عليه الصلاة والسلام حين قال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته ... إنه حين قال ذلك كان المتصوف الأكبر الذى أهمل صغائر الحياة ولذائذ الحس لينصرف إلى أداء الرسالة الكبرى مهما لقى فى سبيل أدائها من عناء

وتلك هى الفكرة الثالثة التى أردت أن أحدثك بها اليوم : اترك جانباً من الحياة لتمعن فى جانب . انفض عن كاهلك غبار الدنيا من ناحية لتقبل عليها نقياً تقياً من ناحية أخرى ...

إن التصوف يريدك أن تقف من دنياك موقفاً وسطاً بين الإهمال والإقبال ، فإن أنت أهملت الحياة كأنك لست منها ، فلست بالمتصوف الحق ، وإن أنت أقبلت على الدنيا كأنها عندك كل شىء فلست بالمتصوف الحق ... إن شغلت منصباً من مناصب الدولة الملحوظة ، فأهملته ولم تأبه لشىء مما يتصل به ، فلست بمنصبك جديراً ، وإن شغلك المنصب بحيث تندك قوائم نفسك لو أفلت منك ، فلست كذلك بالمنصب جديراً . فالرجل الحق هو الذى يبذل وسعه مجاهداً يريد النجاح ولا يخور للفشل ... إن التصوف الصحيح ليريدك على أن تنغمس فى العالم بقدر وتنسحب منه بقدر ، بهذا تكون سيد نفسك ، ولا تصبح ألعوبة لاعب فى أيدى القدر ...

* * *

ولتعلم يا بنى أخيراً أن العالم الحق لا يكون كذلك إلا إن كان متصوفاً ، فهل رأيت عالماً لا يُفنى نفسه إفناء فى سبيل علمه ؟ هل رأيت عالماً لا يضحى بشواغل الحياة الصغرى ليصل فى بحثه إلى الحقيقة الكبرى ؟ هل رأيت عالماً صحيحاً يميل مع هواه فيثبت حقيقة تعجبه ويحذف حقيقة تؤذيه ؟ ثم ماذا ؟ ثم هل رأيت عالماً لا يحب موضوعه إلى درجة الفتنة والجنون ؟ وما موضوعه ؟ هو الوجود أو ناحية من نواحيه !

— لو كان التصوف يا أبت هو أن أؤاخى بين أجزاء الوجود فأنا أول المتصوفين ، ولو كان التصوف يا أبتاه يدعو إلى إهمال الأجزاء الحسية الصغرى لينعقد الفكر على مهمة كبرى فأنا أول المتصوفين ، ولو كان التصوف معناه الجهاد المخلص فى سبيل الحق فأنا أول المتصوفين

زكى نجيب محمود

وزارة الدفاع الوطنى

تقبل عطاءات لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ١٧ مارس سنة ١٩٤٢ عن توريد الخبز — اللبن — الفحم البلدى — حطب الحريق — الملح اللازم للجيش

والشروط بقسم المشتريات والعقود .

٧٧٠٠